بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾

هذه أول آية من سورة يونس عليه السلام، والذي جاء ذكره في هذه السورة في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس: ٩٨].

وتبدأ هذه الآية بقوله تعالىٰ: ﴿الٓرۚ﴾ وقد تحدَّثنا عن معنىٰ هذه الحروف المقطعة، التي أتت في أوائل بعض السور عند حديثنا عن مطلع سورة البقرة، فليرجع إليها هناك مَن شاء.

ومعنىٰ باقي الآية: ﴿تِلۡكَ﴾ يعني هذه ﴿ءَايَٰتُ﴾ من ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن، ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ المحكم المشتمل علىٰ الحكم، الممتنع عن الفساد، ولا تغيره الحوادث والأيام.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾

يقول سبحانه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أمرًا ﴿عَجَبًا﴾ يتعجب منه، وغريبًا إلىٰ هذا الحد ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ وهو محمد ﷺ، حتىٰ يتعجَّبوا منه، وينكروا عليه ذلك..؟

لقد أوحينا إليه: ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الكفار، وخوِّفهم من عذاب الله ﴿وَبَشِّرِ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله، وعملوا الصالحات ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ منزلة رفيعة، ومكانة عالية ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لإيمانهم وأعمالهم الحسنة، وهذا أمر طيب لا يتعجب منه، ولا يستحق الإنكار.

ولكن ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جهلًا منهم وعنادًا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح سحره.

لاحظو أن السورة بدأت بالحديث عن الوحي، وستنتهي كذلك بالحديث عن الوحي، في قوله تعالىٰ لحبيبه:

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

في هذه الآية الكريمة يهدم ربنا عز وجل شبهة المنكرين للوحي المستبعدين له، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: مربيكم ومالككم هو الله، الذي تستبعدون أن يوحيٰ إلىٰ رجل منكم، وهو محمد ﷺ.

هو الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ كأيام هذه الدنيا، أو كل يوم منها بألف سنة مما تعدون، أو غير ذلك، علم ذلك عنده وحده سبحانه.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو أعظم المخلوقات جميعًا، وهو مخلوق غيبي لا يعلم حقيقته إلَّا الله، واستوىٰ عليه استواءً يليق بذاته سبحانه، من غير تحديد ولا تعيين.

ومَن كانت السمٰوات والأرض خلقه، وهذا العرش سلطانه، كيف تستبعدون أن يوحي إلىٰ رجل منكم بما فيه توجيهكم وأمركم ونهيكم؟

هو الله ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ كله: أمر السمٰوات والأرض ومَن فيهن، ويقضي ويقدِّر علىٰ مقتضىٰ علمه وحكمته سبحانه.

ومَن كان التدبير كله له، كيف تستبعدون أن يوحىٰ إلىٰ رجل منكم بما فيه صالحكم ونفعكم..؟

هو الله الذي: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ يشفع لأحد عنده ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ وحده في هذه الشفاعة.

ومَن كانت الشفاعة عنده ليست إلَّا بإذنه علىٰ هذا النحو، كيف تستبعدون أن يوحىٰ إلىٰ رجل منكم؟

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الرب العظيم الموصوف بما سبق ذكره هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ فلا تستبعدوا أن يوحىٰ إلىٰ رجل منكم، وما دام الأمر كذلك، وهو بالفعل كذلك ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ وحده ولا تشركوا معه غيره، من إنسان، أو ملك، أو صنم، أو غير ذلك.

وإذا كان هو المستحق وحده للعبادة.. فكيف يكون ذلك معروفًا وثابتًا إلَّا بطريق الوحي إلىٰ رجل منكم، وعليه كيف تستبعدون الوحي إذًا..؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون ذلك وتنتفعون به فتؤمنون..؟!! **هذا الإله..**

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾

يعني: ﴿إِلَيۡهِ﴾ وحده ﴿مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ يوم القيامة.

وبعد أن أبطل الله عز وجل شبهة المنكرين للوحي دخل بهم إلىٰ الحديث عن اليوم الآخر الذي يعود الخلائق كلهم فيه إلىٰ الله تعالىٰ كما بدأهم؛ وذلك ليجازيهم علىٰ ما قدموا في دنياهم من خير أو شر.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بهذه الإعادة للخلائق ﴿حَقًّاۚ﴾ أي: وعدًا جازمًا لا يتخلف ولا يستبعد؛ حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه هو الذي ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ الخلق ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إليه، وهذه الإعادة ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في يوم القيامة ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ بالعدل الذي يستحقّون المعاملة به؛ لأنهم ما كانوا يميلون عن هذا العدل، ولا يحيدون في الدنيا.

﴿وَ﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولم يعدلوا في دنياهم، فـ ﴿لَهُمۡ﴾ يوم القيامة ﴿شَرَابٞ﴾ في جهنم ﴿مِّنۡ حَمِيمٖ﴾.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠].

ولهم كذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ متعدِّد الأنواع، شديد الإيلام، وكل هذا لهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم، وإذا كان هذا فعله يوم القيامة بعباده، فكيف تستبعدون الوحي إذن؟

ثم يخبر ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ عما خلق من الآيات الكونية، الدالة علىٰ كمال قدرته، وعظيم سلطانه..!!

وذلك: ليزيل الشبهة في الوحي ومحمد ﷺ وينهىٰ التعجب لدى المشركين من ذلك.

ثم: يحطم بالتالي عناد الكفار في قبولهم لهذا القرآن، الذي أوحي به إلىٰ محمدﷺ.

حيث يقول جل جلاله:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

أي: ﴿هُوَ﴾ الله الذي يوحي إلىٰ محمد، هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ أي: ذات ضياء وشعاع، ﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ ذا نور.

لاحظ: الضياء أقوىٰ من النور، والضياء من الشمس، والنور من الضياء، أي: أن نور القمر من ضياء الشمس، أي: انعكاس لضياء الشمس، وهذا ما توصَّل الإنسان إليه حديثًا، وهي من الإعجاز العلمي للقرآن، الذي أخبر بها قبل العصر الحديث بما يزيد علىٰ الألف عام.

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي: جعل للقمر منازل، يبدو صغيرًا، ثم يكبر، ثم يعود صغيرًا.

وذلك ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ فتستفيدون بذلك في أيَّامكم وأعمالكم وعباداتكم.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكره سبحانه ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلَّا لحكمة وغاية ومنفعة، ولم يخلقها عبثًا، وهو سبحانه ﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ الدالة علىٰ قدرته وعلىٰ حكمته، بهذا الشكل من التفصيل ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فينتفعون.

ويقول سبحانه لإزالة شكهم في الوحي، وتحطيم عنادهم للقرآن كذلك:

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ طولًا وقصرًا باعتبار الأزمنة، أو بدءًا ونهاية باعتبار الأمكنة، أو نورًا وظلمة باعتبار الإضاءة،.. إلخ، إضافة إلىٰ ما سبق ذكره من الآيات.. !!

كما أنه في ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من آيات خفية أو ظاهرة، إضافة إلىٰ ما سبق.

وثالثًا: في ما خلق الله في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من الخلائق والعجائب، وتذليلها للخلق، إضافة إلىٰ ما سبق.

إن في كل ذلك ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دالة علىٰ قدرته، وكمال ربوبيته، ووحيه إلىٰ رسله، يسوقها ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ الله، فينتفعون بها، وتزيدهم إيمانًا علىٰ إيمانهم.

وبعد هذا يبين الحكيم الخبير سبب استبعاد الكفار للوحي، ومن ثَمَّ سبب كفرهم وعنادهم لمحمد ﷺ، وعدم أخذهم للقرآن، بقوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يتَّصفون بهذه الصفات الثلاث:

الأولىٰ: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يؤمنون بالبعث، لذا لا يتوقعون مجيئه.

الثانية: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ أي: رضوا بمتاع الحياة الدنيا، وجعلوا التمتع بها منتهى رضاهم ورجاءهم.

الثالثة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ الكثيرة، الدالة علىٰ قدرتنا ﴿غَٰفِلُونَ﴾ عن الاعتبار بها والإيمان بها، والانتفاع بها.

هؤلاء هم الذين يستبعدون الوحي، ويعاندون النبي، وينكرون أن القرآن من عند الله.

ولكن ما جزاؤهم..؟

﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

وهذا هو العدل، وما ربك بظلام للعبيد، وما ظلمهم الله، ولكن أنفسهم يظلمون.

وهناك فريق آخر من الناس، لم يستبعد الوحي، ولم يكفر بالله، ولم يعاند محمدًا، وعمل بالقرآن وما فيه. يقول عنهم ربهم جل وعلا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي يصلحون بها البلاد، ويسعدون بها العباد.

هؤلاء: يختلفون عن الفريق الأول اختلافًا كاملًا حيث ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ يسدِّد طريقهم في الدنيا للاستقامة، ويوفِّقهم إلىٰ سلوك الطريق المؤدِّي بهم إلىٰ مرضاة ربهم.

ولكن ما جزاؤهم؟ جزاؤهم أنهم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ﴾ أي: من تحت قصورهم، ﴿الْأَنْهَارُ﴾ وهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

أيضًا.. ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿دَعْوَاهُمْ﴾ أي: دعاؤهم وتسبيحهم ونداؤهم ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة.. هو ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ تلذذًا بذكره تعالىٰ .**أولاً**.

وكذلك ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ لبعضهم البعض، أو تحية الملائكة لهم، أو تحية الله لهم ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة.. هو قولهم: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: سلامة من كل مكروه وأذىٰ .**ثانياً**.

وثالثًا: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ يعني: وخاتمة تسبيحهم، ونهاية لقائهم، في كل مجلس هو قولهم: ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الله !! نعم الجزاء: جزاؤهم، اللَّهم إنا نسألك أن تجعلنا من هؤلاء يا رب العالمين.

انظر إلىٰ حكمة الباري ولطفه بعباده حينما يقول:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۚ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

والمعنى: أن الله تبارك وتعالىٰ لا يستجيب للناس إذا دعوا علىٰ أنفسهم، أو علىٰ أولادهم أو علىٰ أموالهم بالشر؛ وذلك في حالة غضبهم؛ لأنه سبحانه يعلم أنهم لا يريدون ذلك.. مثلما يستجيب لهم إذا دعوا بالخير.

ولو أنه عز وجل استجاب لهم، وعجَّل لهم الشر الذي دعوا به، كما يعجِّل لهم الخير إذا دعوا به لأهلكهم، ولكنه تعالىٰ يمهلهم رحمة بهم ولطفًا منه عليهم.

وفي الحديث الشريف قوله ﷺ: «**لا تدعوا علىٰ أنفسكم، لا تدعوا علىٰ أولادكم، لا تدعوا علىٰ أموالكم.. لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة؛ فيستجيب لكم**».

ومن هؤلاء الذين يمهلهم رب العزة ولا يهملهم: الكافرون.

حيث يقول: ﴿فَنَذَرُ﴾ أي: نترك ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: الذين لا يؤمنون باليوم الآخر ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ وتجاوزهم حدود الله، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أليس قائلهم هو الذي يقول:

﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]؟

وبعد أن بيَّن المولىٰ أنهم يستعجلون نزول العذاب، وأنه لا يجيبهم لطفًا ورحمة بهم.. !!

يبيِّن بعد ذلك أنهم كاذبون فيما يطلبونه ويدعون به، حيث يقول جل جلاله:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يعني: إذا أصاب الإنسان أي ضرر أو وقع به أي مكروه لجأ إلىٰ الله تعالىٰ، وصار يدعوه في كل حالاته وأحواله، مضطجعًا أو قاعدًا أو قائمًا، طالبًا منه سبحانه إزالة الضرر، ورفع المكروه.

يقول المولىٰ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ وأزلنا عنه المكروه عاد إلىٰ سابق عهده، ﴿كَأَن لَّمْ﴾ يمسسه ضرٌّ ولم ﴿يَدْعُنَآ﴾ إلىٰ رفع هذا الضر عنه.

هذا إنسان سيئ، لم يعرف الله فضله، ولم يشكره حق شكره، زين له الشيطان فخدع، ودعاه للطغيان فاستجاب.

و﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: زين الشيطان للمتجاوزين الحدود، البعيدين عن طاعة الله ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من البعد عن الله، والإعراض عن ذكره، والاهتداء بهديه.

وهذه ليست طبيعة إنسان هذا العصر فقط، بل هي طبيعة السابقين الذين أرسل الله الرسل لهدايتهم، أيضًا يقول الله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾ الأمم التي كانت ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾.

وذلك ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ طغوا وبغوا وأشركوا بالله تعالىٰ ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ بالدلائل الواضحات، والآيات البينات للإيمان بالله والعدول عن ظلمهم وطغيانهم.

ومع ذلك ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: أصرّوا علىٰ الكفر والطغيان.

يعني: لمَّا ظلموا وأصروا علىٰ الكفر، وصاروا بذلك مجرمين أهلكناهم، ومثل هذا الإهلاك ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ من أية أمة.

وأنتم يا أهل هذا العصر سائرون في نفس الطريق فاحذروا.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يعني: يا مَن بعث إليهم محمد ﷺ ﴿جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناكم في هذه الأرض من بعد هذه القرون، التي أهلكناها لتكذيبها.

وذلك ﴿لِنَنظُرَ﴾ وننتظر ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فنجازيكم عليه، إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر.

ثم يخبرنا ربنا عز وجل عن كفار هذه الأمة، فيقول جل وعلا:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ

غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

والمعنىٰ: أن الكفار كانوا إذا قرأ النبي ﷺ القرآن عليهم؛ قال هؤلاء الذين لا يخافون البعث استهزاءً منه وسخرية به ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ ليس فيه عيب آلهتنا ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وكأنه هو الذي ألفه من عند نفسه.

يقول تعالىٰ لحبيبه: رُدَّ عليهم و ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ﴾ لأني لم أقم بتأليفه من عندي.

وأنا ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ من غير تغيير أو تبديل؛ لأن ما أتيت به ليس من صنعي.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بمحاولة فعل ما طلبتم، وهو ليس بممكن ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا ينفع فيه مال ولا بنون.

أيضًا رد عليهم:

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

أي: ﴿قُل﴾ لهؤلاء الذين يقولون لك ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ [يونس: ١٥] لا أستطيع؛ لأنه من عند الله، وليس من عندي، و﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أصلًا.. ما تلوته، لأنِّي أمِّي، لم أتعلم من أحد، ولم أشاهد العلماء، كما أني قد ﴿لَبِثْتُ فِيكُمْ﴾ ومكثت بينكم ﴿عُمُرًا﴾ تعرفونني فيه جيدًا ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من قبل أن أتلوه عليكم، وما جربتم عليَّ كذبًا قط.

إضافة إلىٰ أن ما أتلوه عليكم من القرآن: قد حوىٰ من المعجزات ما تعرفون، بل دعاكم ربي للإتيان بمثله، أو بمثل سورة منه فلم تستطيعوا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدركون أنه الحق من عند الله، فتؤمنون، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدركون إذًا أنني لا أكذب علىٰ الله، فكيف تكذبون..؟

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

يعني: ليس هناك ﴿أَظْلَمُ﴾ أشد ظلمًا وأعتىٰ إجرامًا ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ادعىٰ أن الله أرسله، وهو ليس بذلك، أو نسب إلىٰ الله كلامًا، وهو فيه كاذب ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ كذلك كمن كذب بالقرآن.

والمفترون علىٰ الله الكذب، والمكذبون بآيات الله: مجرمون لا يفلحون؛ حيث إنه ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

ومن جرائم الكافرين، المكذِّبين بآيات الله ما يحكيه عنهم ربنا عز وجل، بقوله:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي: هؤلاء المكذبون ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني غير الله ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ لو لم يعبدوه ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لو عبدوه، وهي: الأصنام.

والعجيب أنهم ﴿يَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام ﴿شُفَعَـٰٓؤُنَا﴾ في أمور الدنيا من طلب الغنىٰ والصحة وغير ذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وأما أمور الآخرة: فهم لا يحتاجون شيئًا؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث أصلًا.

يقول تعالىٰ لحبيبه رداً عليهم: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وهو العليم بهما، وما فيهما ومن فيهما، كيف يكون هذا؟

ثم نزَّه ربنا نفسه عما يدعون من الشركاء والشفعاء، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وللعلم، هذا الشرك لم يكن في الناس قبلًا، بل هو حادث فيهم جديد منهم، بدليل قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

والمعنىٰ: أن الناس كلهم كانوا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ علىٰ دين الإسلام، ثم وقع بينهم الخلاف والاختلاف، وصاروا بذلك مللًا، فيهم أهل الحق وأهل الباطل، فبعث الله الرسل بالآيات، فآمن مَن آمن، وكذَّب مَن كذب.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الحكم النهائي إلىٰ يوم القيامة، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ووقع الهلاك العام بالمكذِّبين.

ولكن شاء الله بتأخير هذا الحكم، ليكون الثواب والعقاب، وليعود الناس إلىٰ ما كانوا عليه ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، ولذلك لا ينبغي أن يغترّ الكافر بعدم تعجيل العذاب، كما لا ينبغي أيضًا أن يغتر العاصي بتأخير العقاب.

وإن شئت أن تعجب من هؤلاء المكذبين، الذين: ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]. فاقرأ معي ما يقولون:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: يقول هؤلاء تعنتًا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ من الآيات التي اقترحوا نزولها كشرط للإيمان به، والتي يحكيها عنهم ربنا في قوله:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

وهنا، يقول له ربه: ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ﴾ أي: الأمر كله لله، ما غاب ولم يحدث، وكذلك ما حدث، فليس لي من الأمر شيء.

وإن كنتم لا تؤمنون حتىٰ تشاهدوا هذه الآيات ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ حكم الله ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

وبعد أن تخبر هؤلاء المعاندين بأن الغيب لله، قل لهم أيضًا ردًا علىٰ طلبهم الآيات:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يعني: هؤلاء الكفار عادتهم العناد والمكر، وعدم الإنصاف.

لقد سلَّطنا عليهم القحط، ثم رحمناهم وأرسلنا المطر غيثًا لهم؛ فنسبوا ذلك إلىٰ الكواكب والأصنام، ولم ينسبوها إلىٰ الفاعل الحقيقي وهو الله، ولو أنزلنا لهم من الآيات ما اقترحوا لظلوا علىٰ كفرهم، ولم يؤمنوا.

ولذلك ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أعجل بالعقوبة لكم من مكركم، واستهزائكم بآيات الله.

و﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ أي: الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة، حتىٰ ينتقم الله منكم.

هذا الإله الذي تطلبون منه أن ينزِّل الآيات، وأنتم تمكرون، وتعاندون:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: هو الله، الذي يمكِّنكم من السير في البر بأقدامكم، أو بدوابكم أو بمخترعاتكم، وفي البحر سباحة، أو بالسفن، والبوارج، وغير ذلك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ﴾ علىٰ سبيل المثال ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ وهي السفن، وكانت تسير بكم في أمان وسلام، وأنتم فرحون متمتِّعون.

وبينما هي كذلك، وأنتم علىٰ هذا الحال ﴿جَآءَتْهَا﴾ أي: هذه السفن ﴿رِيحٌ

﴿عَاصِفٌ﴾ شديدة السرعة، عنيفة القوة، تدمِّر كل شيء في طريقها ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ وعلا بهم موج البحر، بسبب هذه الريح العاصفة ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعني: من كل جهة في البحر، ووصل الحال أن من فيها ﴿ظَنُّوٓاْ﴾ أي: تيقنوا وتأكدوا أنهم ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: هالكون لا محالة، في هذه الحالة ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ وحده ونسوا أصنامهم وآلهتهم، التي كانوا يزعمونها ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مخلصين في الدعاء، مجتهدين فيه، قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ يا رب ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾ المصيبة ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ لك ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الموحِّدين، العابدين، لا نؤمن بغيرك، ولا نعبد سواك. ثم ماذا..؟

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا﴾ استجاب الله دعاءهم و ﴿أَنجَىٰهُمْ﴾ من الشدة التي كانوا فيها، والمصيبة التي حلَّت بهم.. ﴿إِذَا هُمْ﴾ بدلًا من أن يؤمنوا، وأن يشكروا ﴿يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يفسدون فيها، وينكرون نعمة الله عليهم ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.. !!

سبحان الله.. إن أمر الناس عجيب.. !!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الذين يحدث منكم ذلك لا تبغوا في الأرض وتفسدوا فيها، وتؤذوا أهلها ﴿إِنَّمَا﴾ وبال بغيكم هذا وضرره ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وحدكم لا غيركم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا﴾ الذي يغركم ويفتنكم شيء تافه وهو ﴿مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الزائل، الذي لا بقاء فيه، نحن ننبهكم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ بعد الموت ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ بعد البعث ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونجازيكم عليه.

يا أيها الناس.. لا تغترُّوا بالحياة الدنيا:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أي: ﴿مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في تغيرها وتقلبها وسرعة زوالها وانخداع الناس بها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: السحاب ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: هذا الماء ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ فازدهرت الأرض وأينعت وأثمرت وأخذت زخرفها وازينت للناس بثمارها ومنتجاتها، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ باستغلالهم لها، وإبداعهم فيها، واختراعاتهم عليها، وقدرتهم علىٰ التصرف في أمورها، واطمأنوا لذلك، ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ إتلافاً لثمارها، وتخريباً لمنشآتها، وتعذيبًا لأهلها ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ حسبما نشاء ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ ليس عليها شيء ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ يعني: كأن لم تكن، ولم يكن فيها شيء، ولم يكن عليها بشر، منذ وقت قريب.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ وهكذا ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ القرآنية والدلائل الكونية علىٰ قدرة الله ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون وينتفعون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعًا، بعد تمكنهم منها، وثقتهم فيها، ونسوا أن من طبيعتها الهرب ممن طلب، والطلب لمن هرب، وعلىٰ العاقل أن يعرف الله، وأن يعبد الله، وأن يشكر لله. خاصة أن:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

وهذا ترغيب للناس في الحياة الأخروية، بعد ترهيبهم من الركون للحياة الدنيوية.

والمعنىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟﴾ عباده ﴿إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وهي الجنة، بطلب الإيمان منهم، كما أنه سبحانه هو الذي ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام.

هدانا الله وإياكم جميعًا إلىٰ دينه، وسعادة العمل بتعاليمه، وأنعم علينا بدخول جنته «دار السلام».

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

والمعنىٰ: أن الذين أحسنوا في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح لهم من ربهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في الدار الآخرة، وهي التوبة الحسنة جزاء إحسانهم.

ولهم أيضًا ﴿زِيَادَةٌ﴾ علىٰ ذلك؛ حيث يضاعف الله لهم ثواب أعمالهم، بالحسنة عشر أمثالها، إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ غير ذلك من صور الزيادة.. من القصور، والحور العين، وما أخفاه لهم من قرة أعين، الذي هو أفضل من كل ذلك، وهو النظر إلىٰ وجهه الكريم، وفي ذات الوقت ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ لا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ يعني: سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ كما يحدث لأهل النار من السواد والهوان والإهانة في الباطن والظاهر.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين أحسنوا هم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هذا حال المؤمنين في الآخرة، وأما حال الكافرين فيها يقول عنهم ربنا عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: أن الذين أساءوا في الدنيا و﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: اقترفوها، لهم من ربهم عكس الذين أحسنوا في الدنيا؛ حيث يكون عقابهم ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ وهذا هو العدل الإلٰهي.

وفي ذات الوقت ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ تعلو وجوههم ذلة ومهانة من معاصيهم التي ارتكبوها، وخوفهم من العقاب عليها.

﴿مَا لَهُم﴾ ليس لهم مِنْ عقوبة ﴿اللَّهِ﴾ هذه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ يمنع عنهم ذلك، أو يحميهم منه.

ويصير سواد وجوههم في الآخرة شديدًا ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ غطيت ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ بهذا السواد الذي يكون ﴿قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي: كقطع الليل الأسود المظلم.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين كسبوا السيئات هم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يعني: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: المشركين وشركاءهم ﴿جَمِيعًا﴾ الذين كانوا في كل العصور وكل البيئات.

﴿ثُمَّ﴾ نعقد مواجهة بين المشركين ومعبوداتهم من دون الله، فـ ﴿نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الزموا ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ مكانًا قفوا فيه، ولا تغادرونه.

وبعد.. ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ فرَّقنا وميزنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ المشركون على حدة، وما كانوا يشركونهم على حدة، وتنطق هذه المعبودات التي كانوا يشركونها مع الله ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾ لهم تبرؤوا منهم ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ بل كنتم للشياطين تطيعون، ولأهوائكم تتَّبعون.

ثم نقول لهم كذلك:

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: نحن نستشهد على ما قلناه لكم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وكفى ﴿بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ذلك ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ إذْ ما دعوناكم إلى عبادتكم لنا، ولا أمرناكم بها.

كما أننا ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ لنا ﴿لَغَافِلِينَ﴾ لم نشعر بها، ولم نعلم، بل كنتم تعبدوننا دون أن ندري.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يعني: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في هذا اليوم، وفي هذا المكان ﴿تَبْلُوا﴾ تذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أشركت بالله، وعاندت رسله.. جزاء ﴿مَّا أَسْلَفَتْ﴾ وقدَّمت من كفر ومعصية.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿رُدُّوا﴾ أي: أعيدوا ﴿إِلَى﴾ ربهم الحقيقي وهو اللهُ سبحانه ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل.

﴿وَ﴾ بذلك ﴿ضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب نفع ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ويختلقونه من الآلهة، التي كانوا يعبدونها من دون الله.

يا محمد.. هؤلاء المشركون الذين ينكرون الوحي، والذين قد حكينا لك عن بعض أحوالهم فيما سبق، ناقشهم مباشرة، وأبطل عللهم في إنكار الوحي، على النحو التالي:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَن﴾ الذي ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنبات؟

بل مَن الذي ﴿يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ويستطيع تسويتهما، وحفظهما من الآفات مع كثرتها، وسرعة تأثرهما من أدنىٰ شيء..؟

وقل: ﴿مَن﴾ الذي ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالحيوان من التراب، والتراب من الحيوان، أو العالم من الجاهل والعكس، أو المؤمن من الكافر والعكس..؟

﴿وَ﴾ قل لهم بصفة عامة ﴿مَن﴾ الذي ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ لهذه الخلائق كلها، فيتولىٰ أمورها، ويسير شؤونها..؟

أتدري بماذا يجيبون علىٰ أسئلتك هذه لهم..؟

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ هو الذي يرزقنا، وهو الذي يملك أسماعنا وأبصارنا، وهو الذي يخرج الحي من الميت والعكس، وهو الذي يدبر أمر العالم كله.. !! وبهذا يعترفون بوجود الله وقدرته.

﴿فَقُلْ﴾ لهم إذًا لمَ تنكرون الوحي، وتستبعدون أن يرسل الله لكم رسولًا منكم، يكون نذيرًا وبشيرًا، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله وتخافون عقابه، بسبب إنكاركم هذا..؟

وقل لهم أيضًا:

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ الإله، الفعَّال لهذه الأشياء، والذي اعترفتم بوجوده، وقدرته عليها هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ الثابت، وليست الأصنام التي تعبدونها، وهو الذي يستحق وحده العبادة والطاعة، التي لا تكون إلَّا بوحي، وعن طريق رسول.. فكيف

إذًا تنكرون..؟!! وإلَّا ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ والاعتراف به والإذعان له ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؟

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن هذا الحق إلىٰ هذا الضلال، وعن الإيمان إلىٰ الكفر، مع قيام الأدلة والبراهين علىٰ هذا الحق..؟

وبسب تعنّت هؤلاء المشركين، صرفهم الله عن الحق إلىٰ الضلال، لذلك يقول ربنا عز جل:

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يعني: كما حقَّت علىٰ هؤلاء المشركين أنهم لا يؤمنون بسبب تّعنتهم، حقت هذه الكلمة ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ علىٰ كل الذين فسقوا وخرجوا عن طاعة الله، وأنكروا الوحي، واستبعدوا إرسال الرسل.

وهذه حجة أخرى يا محمد ـ ويا كل داعية إلىٰ الله ـ ناقشهم فيها، وأفحمهم بها، وأبطل عللهم:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هَل مِن شُرَكَآئِكُم﴾ التي أشركتموها مع الله، وعبدتموها من دون الله ﴿مَّن﴾ يستطيع أن ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ كله من أول أمره، وهو العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كما كان مرة أخرىٰ، أو يعيده يوم القيامة..؟

أتدري بماذا يجيبوك..؟ لن يجيبوك.

إذًا.. ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الذي ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ وحده ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كما كان، أو يعيده يوم القيامة، ومَن كان كذلك ينبغي التسليم والإذعان له، والإيمان به.

وإلَّا ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عن الحق إلىٰ الإفك، وهو الكذب الواضح والضلال البيِّن..؟

وهذه حجة ثالثة يا محمد ـ ويا كل داعية إلىٰ الله ـ ناقشهم فيها، وأفحمهم بها، وأبطل عللهم معها.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ﴾ ويرشد ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو معرفة الصواب، والهداية إليه..؟ الجواب: لا.

قُلْ إذًا: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الذي ﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾.

وعلىٰ هذا.. أفلا تعقلون أن ﴿مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ هو ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ ويطاع، وليس العاجز، الذي لا يَهْدِي إلَّا أن يهديه غيره، ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ هو لعماه وبكمه..؟

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذه الأحكام الفاسدة، وكيف تتَّبعون هذه الضلالات الواضحة ؟ وكيف تستبعدون الوحي، وتنكرون إرسال الرسل ؟

إن عدم فهمهم، وسوء حكمهم، وفساد اعتقادهم راجع إلىٰ سوء ظنهم، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أي: أن الذي قادهم إلىٰ ضلالهم اتباعهم الظن و﴿ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ حيث إنه أوهام وتخيّلات تقود إلىٰ فساد وضياع.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وسيجازيهم بالسوء عليه.

وإذا كان هؤلاء يسيرون خلف ظنونهم، ويتبعون أوهامهم، فإن القرآن ليس كذلك، حيث إنه حقائق ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧]، كما أنه طريق خلاصهم من هذه الظنون والأوهام.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يعني: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ ولا ينبغي ولا يعقل ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ ويختلق حسب

ظنونهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالىٰ، أي: من غيره، وينسب إليه زورًا، كما يتَّهمون بذلك محمدًا ﷺ.

﴿وَلَٰكِن﴾ ليعلموا جيدًا أنه ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المتقدمة عليه؛ حيث يهيمن عليها، ويبين ما وقع من التحريف والتبديل فيها.

كما أن فيه ﴿تَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بيان ما كتب وفرض من الشرائع والأحكام، والحلال والحرام.

حقًّا.. إنه كتاب ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه وهو منزل ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكيف إذًا ينكرون الوحي، ويستبعدون إرسال رسول يوحىٰ إليه..؟!!

إنهم ـ بعد هذا كله ـ لا حجَّة لهم في ذلك ولا دليل.

وإذا كان هؤلاء ينكرون الوحي الإلٰهي كله.. !! فإن فريقًا آخر ينكر ألوهية القرآن، ويتهم محمدًا ﷺ أنه اختلقه من نفسه، ونسبه افتراءً وكذبًا إلىٰ الله.

فلنقرأ سويًّا قوله تعالىٰ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

أي: إن كنتم صادقين في أن محمدًا هو الذي ألَّف القرآن، فأتوا أنتم ـ لتثبتوا صدقكم ـ بسورة مثله، كما أتىٰ هو به..؟

إنه منتهىٰ التحدي، بل منتهىٰ إثبات عجزهم، وللعلم:

فقد تحدَّاهم الله أولًا: أن يأتوا بمثل القرآن كله في قوله تعالىٰ:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] فعجزوا..!!

وتحدَّاهم ثانيًا: أن يأتوا بمثل عشر سور منه في قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣] فعجزوا..!!

وتحدَّاهم ثالثًا: أن يأتوا بمثل سورة واحدة فقط منه، كما في هذه الآية فعجزوا.. !!

وتحداهم أخيرًا: أن يأتوا بمجرد حديث مثله في قوله تعالىٰ:

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] فعجزوا..!!

ولكن هل موقفهم هذا من القرآن عن علم ودراسة له ولما فيه؟ أبدًا.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

أي: أن هؤلاء ﴿كَذَّبُوا۟﴾ بالقرآن دون معرفتهم لما فيه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ﴾ حتىٰ قبل أن يدركوا روائعه وإعجازه، بل إنهم ـ بعد ذلك ـ ظلُّوا مصرين علىٰ موقفهم من هذا التكذيب.

ومثل هذا التكذيب الذي لا يقوم علىٰ دليل ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم عنادًا، قبل معرفتهم للآيات التي معهم.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المكذبين، لتحذر من أن تكون نهايتك الهلاك والعذاب، كما كانت نهايتهم.

هؤلاء المكذبون بالقرآن أصناف، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

يعني: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: المعاندون ذلك، المكذبون بالقرآن ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ في المستقبل ويهديه الله بعد كفره.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ﴾ أبدًا، ويظل علىٰ كفره، وعناده وإفساده.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ينجِّيك منهم، وينصرك عليهم، ويجعل كيدهم في نحورهم. علىٰ كل حال:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

المعنىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ واستمروا علىٰ ذلك ﴿فَقُل﴾ لهم ﴿لِّى﴾ جزاء عملي ﴿وَلَكُمْ﴾ جزاء عَمَلِكُمْ.

كما أنكم ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾ لا علاقة لكم به ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ لا علاقة ولا صلة لي به.

وهذا ـ كما يقول العلماء ـ منسوخ بالأمر بقتال المشركين.

وهذا صنف آخر:

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يعني: ﴿وَمِنۡهُم﴾ أي: المعاندون لك صنف آخر، وهم ﴿مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ ولكنهم لا يؤمنون، فهم كالصم الذين لا يسمعون.

﴿أَفَأَنتَ﴾ قادر على أن ﴿تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ حتى ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أيضًا؟ ولذلك لا تستبعد إذًا أن يعاندوا ويكفروا بالقرآن.. !!

وهذا صنف آخر منهم، إقرأ معي:

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

أي: ﴿وَمِنۡهُم﴾ أي: المعاندون ﴿مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ ويعاينون أدلة الصدق في كلامك، ويرون علامات النبوة في بيانك، ولكنهم لا يصدقون.!

كما ينظرون إلى سمتك الحسن، ويبصرون خلقك العظيم، ولكنهم لا يؤمنون.!

فهم إذًا، كالعُمي الذين لا يبصرون.. !!

﴿أَفَأَنتَ﴾ قادر على أن ﴿تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ حتى ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ أيضًا؟ ولذلك لا تستبعد إذًا أن يعاندوا ويكفروا بالقرآن!!

على أية حال هؤلاء ظلموا أنفسهم لأن:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ﴾ ويسلب منهم عقولهم، وآليات استدلالهم على الحق، ومعرفة الخير، واتباعه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ هم الذين يعاندون الحق، ويتبعون الهوى، ويحرمون أنفسهم

الخير، والاهتداء والانتفاع به، وبذلك فهم ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هؤلاء استبعدوا الوحي، وأنكروا الرسالة على محمد ﷺ، وكفروا بالقرآن، وظلموا ـ بذلك ـ أنفسهم، فماذا أعدَّ الله لهم..؟ اقرأ معي بعض ما أعدَّ الله لهم في الآخرة:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: يوم يحشر الله هؤلاء المكذِّبين في يوم القيامة، يكون الأمر ﴿كَأَن﴾ أي: كأنهم ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: يمكثوا ويقيموا في الدنيا أو في القبور ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ وذلك لهول ما يرون ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ لفترة وجيزة ثم ينقطع التعارف وتنقطع الروابط والأواصر.

يقول ربنا معلنًا جزاءهم ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ حيث إنهم كذبوا الوحي، الذي كان يخبرهم عن يوم البعث هذا، ويطالبهم بالاستعداد له، وهذه هي الخسارة الحقيقة ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ في سلوكهم وتصرفاتهم وعنادهم الذي ساقهم إلى هذه النهاية.

ثم يقول ربنا سبحانه لرسوله:

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

والمعنى: هؤلاء سنعذِّبهم ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في الدنيا ﴿بَعْضَ﴾ هذا العذاب ﴿ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ به، أو ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن ترى في الدنيا عذابهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ومنقلبهم في الآخرة، ونعذِّبهم.

﴿ثُمَّ﴾ عليك أن تطمئن حيث إن الله ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ في حياتك وبعد مماتك، وسيجازيهم عليه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

أي: سنَّتُنا أنه ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يرسل إليها؛ لينبِّههم إلىٰ الحق، ويدعوهم إلىٰ توحيد الله وعبادته.

﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ إليهم، وبلَّغهم، ودعاهم، فكذبوه، ولم يستجيبوا لدعوة الحق ﴿قُضِيَ﴾ بينه و ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فيما دعاهم إليه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ وهو العدل، فينجِّي الله الرسل والمؤمنين معهم، ويعذب المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بهذا التعذيب؛ حيث إنهم أجرموا في حق أنفسهم وغيرهم، وهكذا نفعل بمكذبي هذه الأمة أيضًا.

العجيب أن هؤلاء المكذبين بدلًا من أن يسارعوا بالتصديق بالقرآن والإيمان بالله، واتباع الرسول، بعد معرفة العذاب الذي ينتظرهم بدلًا من ذلك يسألون متشككين:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

يعني: ﴿يَقُولُونَ﴾ للنبي والذين آمنوا معه استبعادًا، أو استهزاءً: ﴿مَتَىٰ﴾ يكون ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون.؟!

ويأمر ربنا رسوله بهذا الأمر:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أي: ﴿قُل﴾ لهم:

أولًا: أنا عبد لا أملك لنفسي شيئًا من أمري ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يكون.

وثانيًا: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مكذبة ﴿أَجَلٌ﴾ ووقت معلوم في اللوح المحفوظ لعذابهم، ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: وقت عذابهم ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

ولذلك فلا تحاولوا معرفة وقته أو استعجال مجيئه، بل استعدوا للنجاة منه بالإيمان والتصديق، والعمل الصالح.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني: أخبروني ماذا تريدون؟ ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ من الله

﴿عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون ﴿بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ ليلًا وأنتم نائمون، أو نهارًا وأنتم تعملون.

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ إلَّا الندامة والحسرة علىٰ هذا الاستعجال، والألم الشديد علىٰ ما يكون.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

والمعنىٰ: هل ﴿إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذاب ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾؟

حتىٰ ولو حدث ذلك يقال لكم: لا يقبل منكم الإيمان ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ خاصة ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ﴾ أي: العذاب ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ استهزاءً وإنكارًا!!

وعلىٰ لسان ملائكة العذاب يوم القيامة يكون ما يحكيه الله تعالىٰ بقوله:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أي: ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا كله ﴿قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالكفر والتكذيب والاستهزاء ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: العذاب الدائم.

ويكون استفهام تقريري، يقال لهم فيه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاء ما كنتم تفعلونه وتكتسبونه من شرك، وكفر، وعناد، واستهزاء..؟

ثم ـ بعد ذلك ـ يكون منهم سؤال آخر يحكيه المولىٰ عز وجل بقوله:

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي: يستخبرونك ويسألونك قائلين: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: البعث والعذاب..؟ وإذا كانوا يسألون عبثًا واستهزاءً: فأجبهم أنت بكل جِدِّيَّةٍ.

﴿قُلْ﴾ لهم ثلاثة أشياء هي:

أ ـ ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾ نعم وربي، وهو قسم لهم علىٰ وقوع البعث.

ب ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: البعث والعذاب، الذي تسألون عنه ﴿لَحَقٌّ﴾ واقع بكم.

جـ ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لله تعالىٰ عن إعادتكم للبعث بعد موتكم.

يلاحظ: أن النبي ﷺ لم يقسم ـ بأمر ربه ـ علىٰ وقوع البعث في القرآن الكريم إلَّا في هذه الآية، وآيتين أخريين هما:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبإ: ٣].

و ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

وبعد هذا القَسَم يبيِّن الله لهؤلاء الكافرين هَوْل ما سيلاقونه في يوم البعث الذي ينكرون.. فيقول جل شأنه:

﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤﴾

يا سبحان الله !! لو أن لكل نفس ظالمة ما في الدنيا كلها من الأموال والكنوز، وكل شيء يوم القيامة لافتدت به، من سوء ما تجد من الأهوال وألوان العذاب.

﴿وَأَسَرُّواْ﴾ أي: الكفار ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ والحسرة عجزًا منهم وخجلًا ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ ونزل بهم.

﴿وَ﴾ كذلك عندما ﴿قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ وعوملوا بالعدل في هذا اليوم، ووجدوا أنهم ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ شيئًا.

ومن هنا فعلىٰ كل عاقل أن يفتدي نفسه الآن قبل أن لا ينفع الفداء.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾

هنا: يخبر سبحانه أنه مالك السمٰوات والأرض، وأن وعده حق واقع لا محالة، وأنه يحيي ويميت، وإليه مرجع الخلائق كلها، وأنه وحده القادر علىٰ ذلك.

وبعد أن حذَّر الله عباده من عواقب الضلال، يستميلهم إلىٰ الخير والفلاح بما في القرآن من موعظة وهداية، فيقول عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾

يعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميعًا ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: القرآن، فيه ما لكم وما عليكم، وفيه بيان ما ينفع من الأعمال والترغيب فيها، وبيان ما يضر من الأعمال والتحذير منها.

وهذا القرآن الذي يحتوي علىٰ الموعظة، فيه من الخصائص والمزايا الكثير.

فهو: ﴿شِفَآءٌ﴾ أي: دواء وعلاج ﴿لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ من الشكوك والوساوس، والعقائد الفاسدة، والشبه المهلكة.

وهو: ﴿هُدًى﴾ لمن أراد الله له الهداية، يهتدي بما فيه إلىٰ الحق، وإلىٰ طريق الصواب، ويبتعد بما فيه عن الغواية والضلال.

وهو: ﴿رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين به، العاملين بتعاليمه وأحكامه، رحمة لهم في الدنيا وفي الآخرة.

وهذا هو فضل الله علىٰ عباده.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم: الفرح الحقيقي الذي ينبغي أن يسعد به الإنسان هو: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ علىٰ عباده بالإسلام، ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ لهم بالقرآن.

ومن هنا ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الفضل، وبهذه الرحمة ﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ بهذا الخير الذي منَّ الله عليهم به.

و ﴿هُوَ﴾ أي: هذا الخير، الذي منَّ الله به علىٰ عباده ﴿خَيْرٌ﴾ لهم وأفضل ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا الزائل.

ويلاحظ: أن هذه الآية الكريمة، تصحح للناس فهمهم الخاطئ لمفهوم الفرح الحقيقي. وهذا تصحيح لمفهوم آخر:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وهذا: في قضية التحليل والتحريم، التي هي لله وحده.

يقول ربنا لحبيبه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم مصححًا ﴿أَرَءَيْتُم﴾ يعني: أخبروني ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾ وخلق ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ وتدخَّلتم فيه بأهوائكم ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ﴾ أشياء

﴿حَرَامًا﴾ كالبحيرة والسائبة، وقد أحَّلها الله، وجعلتم منه أشياء ﴿حَلَـٰلًا﴾ كالميتة، وقد حرمها الله.

﴿قُلْ﴾ لهم: خبِّروني بربِّكم ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ فيما فعلتموه من التحريم والتحليل؟ ﴿أَمْ﴾ أنكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ ودينه ﴿تَفْتَرُونَ﴾ وتكذبون؟

إنكم حقيقة تفترون علىٰ الله ودينه وشرعه وتكذبون.. !!

قل لهم يا محمد:

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يعني: هل يظن ﴿ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أن الله عز وجل لا يحاسبهم علىٰ ذلك ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

كلا.. بل سيحاسبهم، وسينالون ما يستحقون علىٰ ذلك من عقاب.

ألا فليعلم الجميع أن الله تعالىٰ ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أحلَّ لهم ما ينفعهم، وحرَّم عليهم ما يضرهم.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بالإقبال علىٰ الله، والعمل بشرعه.

وبعد هذا التصحيح والتصويب لقضية التحليل والتحريم، يبيِّن ربنا عز وجل أنه الرقيب علىٰ كل أحوال عباده، وهذا تنبيه منه سبحانه بضرورة الالتزام، حيث يقول عز وجل:

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

في هذه الآية الكريمة يخبر تعالىٰ نبيه عليه الصلاة والسلام أنه يعلم أحواله، وأحوال أمته، وأحوال الخلائق كلها في كل لحظة، وأنه لا يغيب عن علمه شيء صغر أو كبر.

ولذلك فهو المستحق للإفراد بالعبودية، والتقوىٰ والخشية والتحليل والتحريم.

obeikandi.com

يقول: وما تكون في أي عمل يا محمد، أو أي تلاوة، كذلك ما تعملون يا عباد الله من عمل ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ لكم ومراقبين ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ حينما تعملونه.

كما أنه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ لا يغيب ﴿عَن رَّبِّكَ مِن﴾ شيء ولو ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ مما خلق ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا﴾ وهو موجود ومثبت ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

والذي يدرك ذلك جيدًا، ويؤمن به، هم أولياء الله:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يعني: هؤلاء الأولياء ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما ينتظرونه من أمور الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على شيء من أمور الدنيا.

ولكن.. مَن هم هؤلاء الأولياء؟

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يعني: هم ﴿الَّذِينَ﴾ تحقق فيهم هذان الأمران:

الأول: أنهم ﴿آمَنُوا﴾ بكل ما يجب الإيمان والتصديق به.

الثاني: أنهم ﴿كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الله، بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وتطبيق شرعه.

ويفهم من هذا، أنه لا ولاية لله إلَّا بهذا، وليس ولي لله تعالىٰ مَن كان علىٰ غير هذا.

ولكن أيضًا.. ما جزاء هؤلاء الأولياء؟

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

أي: ﴿لَهُمُ﴾ عند الله، ومن الله ﴿الْبُشْرَىٰ﴾ الحسنة، وذلك: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سواء أكانت هي الرؤيا الصالحة، كما في الحديث الشريف قوله ﷺ:

«هي الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو تُرىٰ له».

أم كانت بشرىٰ الملائكة للمؤمن عند خروج روحه، بالجنة والمغفرة، كما في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كذلك.. كما في قوله تعالىٰ:

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

هذه الوعود الطيبة كلمات الله و ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ولا تغيير.

كما أن ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

هذا حال أولياء الله الذين تسر بهم يا محمد وتفرح لهم، وأما حال أعداء الله:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

يعني: إذا كان الكفار يعتقدون فاسدًا، ويقولون باطلًا، فلا تأبه لهم ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ ولكن استعن بالله، وثق بنصره، وتوكل عليه واعتز به حيث ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ والقوة والنصرة ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: كلها، بجميع صورها، وأنواعها.. وقد جعلها لرسوله وللمؤمنين: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده جميعًا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم كلها؛ وسيجازيهم علىٰ الأقوال والأفعال بما يستحقون.

ولكن.. ماذا يقول هؤلاء الكافرون، ويُحزن النبي ﷺ؟ هذا ما يعالجه المولىٰ من عقائدهم الفاسدة فيما يلي:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

وهذه عينة مما كان يحزن النبي ﷺ من أقوالهم، وهي قضية الشرك بالله؛ حيث كانوا ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ﴾ لله.

والقرآن يعالج هذه العقيدة الفاسدة بأمرين:

الأول: تقرير أن لله كل شيء ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جميعًا، فهو مالك الملك، بما في ذلك العابدون والمعبودون.

الثاني: بيان أن أصحاب هذه العقيدة يجرون خلف ظنونهم وأوهامهم الكاذبة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون، وتخدعهم ظنونهم.

ثم يبيِّن ربنا دلائل قدرته وملكيته للكون وما فيه بما يثبت عجز ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أنهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

فيقول عز وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يعني: ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ ولا أحد غيره يفعل ذلك أو يستطيعه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي جعله لكم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ بينات واضحات ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر وفهم، فينتفعون به.

وهذا نموذج آخر مما كان يقول الكافرون، ويُحزن النبي ﷺ:

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ هؤلاء الكافرون ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ حيث قال اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارىٰ: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله.

يردّ الله عليهم جميعًا ويبطل أقوالهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ منتهىٰ الإيجاز، والإعجاز، أي: تنزه الله وتعالىٰ عما يقولون علوًّا كبيرًا.

والدليل على فساد قولهم:

أولًا: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن كل خلقه، وعن اتخاذ الولد، ودليل الغنى ﴿لَهُۥ﴾ وحده ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثانيًا: ليس ﴿عِندَكُم﴾ أيها الكفار ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ دليل ﴿بِـ﴾ صحة ﴿هَٰذَآ﴾ الذي تدعون.

إذًا أنتم: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. **وعلى هذا:**

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ للذين يقولون: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [يونس: ٦٨] وأمثالهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا يسعدون لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

عجيب!! ولكنهم يسعدون بما نراهم فيه الآن، لا.. إن ما هم فيه هو:

﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يعني: ما هم فيه الآن ﴿مَتَٰعٌ﴾ قليل ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ يتمتَّعون به مدة حياتهم القصيرة.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ بعد الموت في القبر، وبعد البعث في نار جهنم، كل ذلك بسبب مَا ﴿كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ به، وبما كانوا يفترونه من الكذب على الله.

ما زالت السورة وآياتها ترسِّخ قضية الوحي الذي أنكره المشركون، وتعجّبهم أن يوحى إلى رجل منهم، وهو محمد عليه الصلاة والسلام، لينذر ويبشر بالقرآن حيث تذكر نماذج من الرسل، الذين أُوحي إليهم قبل محمد ﷺ.

ولذلك فلا داعي إذاً لاستبعاد موضوع الوحي، ومن ثم الإنكار على محمد أن يرسله الله إليهم، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عرفهم واقصص عليهم ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ عليه السلام حينما ﴿قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ الذين دعاهم إلىٰ توحيد الله وعبادته:

﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ وشقَّ وأصبح ثقيلًا ﴿مَّقَامِى﴾ بينكم ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ لكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة علىٰ وجوده وتوحيده وضرورة عبادته.. !! فهذا واجبي وهذه رسالتي إليكم، فاختاروا ما شئتم من الهدىٰ، أو الضلال.

وأمَّا أنا ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وسأواصل إبلاغكم دون خوف منكم، ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ أنتم ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ وافعلوا ما يحلو لكم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مخفيًّا، بل أظهروه لي وجاهروني به، كيف شئتم، فأنا لا أخافكم .﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ ونفذوه ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ بإمهال، أو تأخير. وهذه منتهىٰ الثقة بالله، والتوكل عليه. ثم قال لهم أيضًا:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يعني: إن بقيتم علىٰ إعراضكم بعد الذي قلت لكم فلا خسارة علي؛ حيث إني مَا ﴿سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ تدفعونه لي ثمنًا لهذا الإرشاد الذي أصنعه معكم، ولكن: أجري علىٰ الله، وعنده وحده.

كما أني ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه، المستسلمين لأمره، لا أخالف أمره، ولا أخاف غيره.

ولكن ماذا حدث بعد أن قال لهم ذلك؟

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

لم يفكروا فيما قال لهم نوح عليه السلام، وما دعاهم إليه.. !! بل كَذَّبُوهُ فورًا.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧].

وصنع نوح عليه السلام السفينة، وظل يدعوهم:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠].

وركب نوح عليه السلام السفينة، والذين آمنوا معه .﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾.

ثم ماذا بعد؟ ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها المخاطب في كل عصر، وكل مِصر ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ المكذبين واعتبر بها، ولا تعاند كما عاندوا، ولا تخطئ كما أخطؤوا، ولا تكفر كما كفروا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلًا﴾ آخرين إلىٰ قومهم، يدعونهم إلىٰ التوحيد، وإلىٰ عبادة الله.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والدلائل علىٰ صدقهم في دعوتهم.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ بهؤلاء الرسل ولا بدعواتهم، حيث كذبوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ﴾ الرسل الذين أرسلوا ﴿مِن قَبْلُ﴾.

و﴿كَذَٰلِكَ﴾ الطبع والختم علىٰ القلوب التي تكذب ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين للحدود المعهودة في الكفر والعناد، المتجافين عن قبول الحق، وسلوك طريق الرشاد.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عليهما السلام ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ لدعوتهم إلىٰ عبادة الله وحده.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن قبول الحق، وإجابة الدعوة، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ في موقفهم مع موسىٰ، ودعوته وآياته.

ولكن كيف كان ذلك؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ مع موسىٰ وهارون، وهي دعوتهم إلىٰ عبادة الله المؤيَّدة بالدليل، وهي الآيات التسع: العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، قالوا:

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاء به موسىٰ ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وهذه هي عادة أهل الإجرام، يحاربون الدعاة إلىٰ الله، ويسفِّهون عقولهم، ويكذبون أقوالهم، ويؤكدون ذلك.

فهل ردَّ عليهم موسىٰ عليه السلام ؟ نعم، وقال لهم:

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿قَالَ﴾ لهم موسىٰ ثلاث جمل في منتهى الإيجاز والبلاغة:

الأولىٰ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ فورًا وبدون تدبر فيه ولا دراسة وتعقل له، ولذلك: فما تقولونه فاسد.

الثانية: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ وما كان ينبغي لكم أن تقولوا ذلك علىٰ آيات الله.

الثالثة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ وأنا لست بساحر، بل أنا رسول رب العالمين، فالفلاح من نصيبي، والخسران نصيب المكذبين.

فهل فهموا كلامه عليه السلام وآمنوا؟ أبدًا والله، بل استمروا في عنادهم، حيث:

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

سبحان الله..!! ردوا علىٰ موسىٰ عليه السلام بجمل ثلاث هربوا بها من نقاشه الجاد، وكلامه الواضح، حيث ﴿قَالُوٓا۟﴾:

أولًا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: تصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من دين كانوا عليه، واتبعناهم فيه..؟

ثانيًا: وتريد يا موسىٰ بدعوتك التي جئت بها أن ﴿تَكُونَ لَكُمَا﴾ أنت وأخوك ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ والعز والسلطان ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهي أرض مصر، وتنزع منا الحكم فيها، وفي أهلها.

ثالثًا: قرارنا النهائي ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدِّقين لدعوتك، ولا متبعين لرسالتك؛ لأنك لا تريد من كل هذا إلا السلطان والملك الذي نحن فيه.

وأتبعوا هذا الرد القولي بالرد العملي الآتي:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

أي: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لحاشيته اجمعوا السحرة من كل أنحاء البلاد و﴿ٱئْتُونِى﴾ منهم ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ ماهر بفنون السحر، ﴿عَلِيمٍ﴾ أي: بدقائقه؛ ليهزم موسىٰ ويبطل سحره.

وفعلًا قام أتباعه وجمعوا السحرة، فماذا حدث؟

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يعني: جاء السحرة، وعلموا الموضوع، واتفقوا مع فرعون قائلين:

﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣].

ووعدهم فرعون بكل ما طلبوا، بل قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤] حينما تغلبون. وبدأت المواجهة بين السحرة وموسىٰ عليه السلام.

و﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥].

وهنا: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من سحركم.

وبعد.. ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

لمَّا قال لهم موسىٰ: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠]؛

﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ بهذا الشكل حبالهم وعصيهم ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ لهم: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ وهو ﴿ٱلسِّحْرُ﴾.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ لأنه فساد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ على الفور ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ﴾ آية من عند الله ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] وليست سحرًا.

وهنا.. ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

هكذا: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يعني: ويظهر الله الحق بأوامره وأحكامه وفي مواعيده، وعلىٰ أيدي رسله.

حتىٰ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ في كل العصور وفي كل البيئات ذلك، كما كان يكرهه فرعون.

ولكن هنا سؤال هام: هل آمن مع هؤلاء السحرة لموسىٰ غيرهم..؟

اقرأ الجواب علىٰ ذلك من المولىٰ، حيث يقول عز وجل:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

سبحان الله.. بالرغم من هذه الآيات البينات التي جاء بها موسىٰ، والتي آمن بسببها السحرة الماهرون في يوم العيد، وأمام الجموع الحاشدة.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ بالله تعالىٰ مع هؤلاء السحرة الذين آمنوا ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ طائفة ﴿مِّن﴾ شباب ﴿قَوْمِهِۦ﴾ المصريين المتحمسين.

وكانوا في إيمانهم هذا ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ بسبب بطشه وجبروته وظلمه، وخوف كذلك من ﴿مَلَإِيْهِمْ﴾ وأجهزة استخباراتهم، أن يكتشفوا أمرهم، فيؤدي بهم ذلك أن ﴿يَفْتِنَهُمْ﴾ ويعذبهم، فرعون وزبانيته.

خاصة ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ تكبر ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ظالم لأهلها ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في طغيانه، حيث يقول لأهل البلاد: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

ولهذا.. يقول رب العزة تبارك وتعالىٰ:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يعني: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ للخائفين من أتباعه الذين آمنوا معه ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ

﴿ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ ووثقتم في نصرته ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ إذْ بدون التوكل على الله، والاعتماد عليه، وتفويض الأمر إليه لا يستطيع فرد ولا جماعة ولا أمة أن تحقق هدفًا يفرضه الله، أو تتخلص من ظلم ظالم.

أي: عليه توكلوا إذًا ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾، وفوضوا أمركم إليه.

ماذا فعل الذين آمنوا مع موسىٰ حينما أمرهم بذلك؟ يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾

أي: استجابوا لموسىٰ فورًا، وفوَّضوا أمرهم إلىٰ الله، وتوكَّلوا عليه، ثم توجهوا لله داعين قائلين:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تنصرهم علينا، فيكون في ذلك فتنة لهم؛ حيث يظنون بذلك أنهم على الحق، ونحن على الباطل.

ثم دعوا دعوة أخرىٰ حيث قالوا:

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يعني: وخلِّصنا واكتب لنا النجاة ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ لنا وإحسانك بنا ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين كفروا بالحق، وبغوا على أهله، وهكذا سألوا الله العافية والنجاة.

وبعد هذا التوجيه ـ في هذه المحنة القاسية ـ من موسىٰ لقومه يكون التوجيه الإلٰهي ـ للوصول للخلاص النهائي من هذه المحنة ـ لموسىٰ وأخيه من الله تعالىٰ.

حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

نعم، أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ وأخيه عليهما السلام، وأرشدهما إلىٰ الطريق العملي، الذي ينبغي اتباعه في هذه الظروف القهرية الاضطرارية.

وهي ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ اتخذا ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ المؤمنين ﴿بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تقيمون فيها حتىٰ يألفكم الناس وتألفونهم، ويعرفون عن قرب دعوتكم.

﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ﴾ هذه ﴿قِبْلَةً﴾ للمؤمنين يجتمعون فيها، ويتشاورون في أمورهم، ويدرسون دينهم، ويعبدون فيها ربهم، خاصة وأن العيون ترصدكم، والطاغوت يحول بين لقاءاتكم، ويمنعكم من عبادة ربكم.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على كل حال وفي أي مكان، وأتموها ولا تتهاونوا في أدائها، واستعينوا بها على ما أنتم فيه.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين معك يا موسى بالنصر في الدنيا، والجنة في يوم القيامة.

ويبدو أن موسى عليه السلام أدرك مما أوحي إليه أنه والمؤمنون معه مقدمون على مرحلة من الجهاد طويلة، ولذلك استعان على عدوه بالدعاء:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

توجَّه موسى إلى ربه لمَّا تأكَّد من عناد فرعون واستمراره في طغيانه، وقال: يا رب لقد ﴿ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ من أهل الباطل ﴿زِينَةً﴾ بهيجة ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ كثيرة ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.. !!

﴿رَبَّنَآ﴾ لقد آتيتهم ذلك، فكان وسيلتهم للطغيان والفساد و ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ الحق ودينك القويم، فلا يتبعوه، وما دامت النعمة قد أضلتهم وأطغتهم ولم يؤمنوا!! فاشدد يا رب وطأتك عليهم.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أهلكها ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أغلقها برباط قوي متين ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟﴾ بأنفسهم ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الذي تنزله عليهم في الدنيا، بسبب كفرهم وطغيانهم.

وأجاب الله موسى عليه السلام الذي كان يدعو، وهارون عليه السلام الذي كان يؤمِّن على دعاء أخيه:

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

يعني: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ كما طلبتما ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ علىٰ الرسالة والدعوة إلىٰ الله ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ في استعجال إجابة الدعوة ﴿سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمة الله في تأخير تحقيق المطلوب.

وقد تحققت الدعوة كما طلبا، فمسحت ـ كما قال الرواة ـ أموالهم وهلكت، وربط الله علىٰ قلب فرعون فمكث أربعين، فلم يؤمن حتىٰ أدركه الغرق، ورأىٰ العذاب في الدنيا بعيني رأسه، ومع ذلك لم ينفعه إيمانه.

وبيان ذلك في قوله تعالىٰ:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يعني: لمَّا وصل موسىٰ وبنو إسرائيل إلىٰ البحر، وهم في طريقهم للخروج من مصر، تبعهم فرعون وجنوده ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي: ظلمًا وعدوانًا.

وانفلق البحر، في معجزة إلٰهية لموسىٰ عليه السلام؛ إنقاذًا له ولمن معه، من فرعون وجنوده، ومرَّ موسىٰ ومن معه من هذا الفلق في الماء، حتىٰ وصلوا إلىٰ الشط الآخر ـ علىٰ نحو ما سبق ذكره في سورة الأعراف [١٣٨].

وتبعهم فرعون، ودخل البحر بجنوده، وأطبق الله عليهم ماء البحر، حيث انتهت معجزة فلق ماء البحر، وغرقوا فيه.

وهنا، وفي حال الغرق ﴿قَالَ﴾ فرعون لينقذ نفسه ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ معهم.

ولكن.. جاء هذا بعد فوات الأوان..

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾

يقول المولىٰ له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ من ﴿قَبْلُ﴾ في زمن

التكليف، فلم تؤمن ﴿وَكُنتَ﴾ إضافة إلىٰ عدم إيمانك ﴿مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بضلالك وإضلالك.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ نميتك و ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ الذي لا روح فيه ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ من بعدك من الناس، ولمن يخلفك من الطغاة ﴿ءَايَةً﴾ وعبرة يعتبرون بها، فلا يفعلون فعلك.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ في كل العصور، وفي كل البيئات ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ ومعجزاتنا والاعتبار بها، والانتفاع بها ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾.

وبعد أن نجَّىٰ الله بني إسرائيل بهذه المعجزة الواضحة، يبيِّن سبحانه بعض نعمه عليهم، فيقول جل شأنه:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أي: إنه بعد أن خرج بنو إسرائيل من مصر، ومروا بمراحل عديدة من تاريخهم، ودخلوا إلىٰ الأرض المقدسة، وأسكنهم الله فيها.

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا بني إسرائيل ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: منزل كرامة، كرمناهم فيه، وهي الأرض المقدسة .﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بأنواعها العديدة.

وطابت لهم الحياة، وكانوا في أهنأ حال.. ولكنهم لا يحبون الطيبات، ولا يستريحون لهدوء الحال، حيث اختلفوا وسفَّه بعضهم بعضًا، وقاتل بعضهم بعضًا، وآمن بالتالي بعضهم، وكفر البعض الآخر.

يقول تعالىٰ: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ علىٰ هذا النحو ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ الذي ينير الطريق ويزيل اللبس، ويمنع الخلاف. ولذلك ما كان لهم أن يختلفوا.. !!

علىٰ أية حال ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى﴾ أي: يفصل ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل فريق بما يستحق.

وبعد أن ذكر المولى عز وجل هذا القصص، للنبي ﷺ وللمكذبين من قومه، للتدليل علىٰ الوحي.

يخاطب حبيبه مباشرة بهذا الخطاب، حيث يقول عز وجل:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

نؤكِّد من البداية أن محمدًا ﷺ ليس عنده أدنىٰ شك، ولكن الكلام موجّه للمشركين.

أي: أنه علىٰ مَن يشك في الوحي أو في القرآن، أو في نبوة محمد ﷺ أن يسأل أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن﴾ قبل محمد ﷺ.

ولو سألهم وأجابوا بصدق: لوجد هذا القصص عندهم، ولعرف أن الوحي من الله صدق، ولعرف أن القرآن من عند الله صدق، ولعرف أن محمدًا نبي صدق.

وبدون كل هذا يكفي أن يقول تعالىٰ لحبيبه: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

وهذا الحق هو أنك رسول من رب العالمين، وأن أهل الكتاب يعلمون ذلك علم اليقين.

وما دام الأمر كذلك، فإن الله ينهىٰ نبيه عن أمرين، والمراد بذلك أمته:

النهي الأول: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكين المتشككين.

النهي الثاني: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

يعني: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ أبدًا مِن بين ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الأنفس أو الآفاق، أو القرآن، فلم يؤمنوا بها وعاندوا ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ بهذا التكذيب في الدنيا والآخرة.

بعد كل هذا يكون القرار الإلٰهي التالي:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ﴾ وجبت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مهما فعلت معهم، ومهما جاءتهم الآيات، حيث طبع علىٰ قلوبهم.

نعم.. إنهم لا يؤمنون، حتىٰ:

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

لا يؤمنون ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ينزل بهم فيؤمنون، ولكنه إيمان لا ينفعهم.

يقول تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: عذابنا ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

هذه سنة الله في عباده المصرِّين علىٰ الكفر، حتىٰ يروا العذاب، ولم يستثن منها إلَّا حادثة واحدة في التاريخ، وهي حادثة قوم يونس عليه السلام.

يقول المولىٰ عز وجل:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

يعني: ليس هناك أهل بلد آمنوا لمَّا رأوا العذاب، فنفعهم إيمانهم هذا ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فقط ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ عندما رأوا العذاب، نفعهم إيمانهم، وقبله الله منهم.

يقول سبحانه: و﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ونجَّيناهم منه ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ في الحياة وبالحياة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالهم.

وعلىٰ هذا فليسارع مَن يريد النجاة من العذاب إلىٰ الإيمان والتوبة إلىٰ الله.

ولمَّا كان النبي ﷺ حريصًا علىٰ إيمان قومه شغوفًا بهذا الأمر، هوَّن الله تعالىٰ عليه، وبيَّن له أن مرجع ذلك إليه سبحانه، حيث يقول جل جلاله:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

يعني: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد أن يؤمن الناس ﴿لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ بما فيهم أهل مكة، الذين تودّ أنت إيمانهم، ولكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمنوا.

﴿أَفَأَنتَ﴾ مع ذلك تريد أن ﴿تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ علىٰ الإيمان ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

لا يا محمد ليس لك ذلك، ولم تكلف به؛ إنما أنت فقط بشير ونذير، كما أنه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ثم اعلم أنه:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

أي: لا تؤمن نفس إلَّا بإذن الله، ولا تكفر نفس إلَّا بإذن الله؛ حيث إن كل شيء بأمر الله، ولا تكون الهداية إلَّا من الله.

﴿وَيَجْعَلُ﴾ ربنا ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يفهمون، ولا تنشرح صدورهم لآيات الله، ولا يؤمنون بها.

يا محمد: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

يعني: قُلْ لهؤلاء الكفار ﴿ٱنظُرُوا۟ مَاذَا﴾ يوجد ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ من آيات الله، الدالة على وحدانيته، وقدرته لعلهم يؤمنون.. !!

ولكن ﴿وَمَا تُغْنِي﴾ وتنفع يا محمد هذه ﴿ٱلْـَٔايَٰتُ﴾ وتلك ﴿ٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ﴾ في علم الله أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

لا شيء. حيث عميت قلوبهم، وصمت آذانهم، فلم يعودوا يرون الحق، وإذا رأوه لا يحبونه ولا يعترفون به. وإذا كان أمر هؤلاء كذلك لا يعتبرون، ولا تفيدهم الآيات.. !!

فماذا يكون..؟ يقول الله تعالى:

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

أي: ماذا ﴿يَنتَظِرُونَ﴾ ويتوقَّعون بعد تكذيبهم لك، وعدم إيمانهم ﴿إِلَّا﴾ أيامًا من العذاب ﴿مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ أي: سبقوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ وعذبوا فآمنوا، ولكن بعد أن فات الأوان، ولم ينفع الإيمان.. !!

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ هذا العذاب الذي تنكرون ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لما يحدث لكم.

وما نتيجة هذا الانتظار..؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

أي: نعذب الذين كفروا بآياتنا ورسلنا، ولم يؤمنوا ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من هذا العذاب.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنجاء الذي ننجي به الرسل، ومن آمن بهم كان ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أن ﴿نُنجِ﴾ المؤمنين معك يا محمد.

وفي خاتمة السورة **خطابان** للناس جميعًا، علىٰ لسان محمد ﷺ:

في **الخطاب الأول**: نفي للشك عن دين الله، يقول الله تعالىٰ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

ومعنىٰ الآية: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الدنيا كلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في كل زمان ومكان ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ وهو الإسلام أنه حق.. !!

﴿فَـ﴾اعلموا أنني ﴿لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ﴾ أنتم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كالأصنام أو البشر أو البقر أو المادة، أو.. أو.. إلخ.. ﴿وَلَٰكِنْ﴾ والحمد لله تعالىٰ ﴿أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ بقبض أرواحكم.

﴿وَأُمِرْتُ﴾ كذلك عن طريق الوحي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ به سبحانه.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

أي: وأمرت كذلك بقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾.

يعني: استقم علىٰ دين الله غير ملتفت إلىٰ غيره ﴿حَنِيفًا﴾ أي: بعيدًا عن الشرك، وما يؤدي إليه.

وكذلك: نهيت بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ اعتقادًا أو عملًا وسلوكًا أو قولًا.

أيضًا نهيت بقوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

أي: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ ولا تعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام وغيرها ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن سألته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن أهملته.

ولذلك: لا تعبد غير الله تعالىٰ ولا تسأل غير الله تعالىٰ ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ شيئًا من ذلك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فمن الذي يمنعك ـ أيها الإنسان ـ من عبادة الله وحده، خاصة إن عرفت ما يلي:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

يعني: كيف تشك أيها الإنسان في الإسلام، وتعبد من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك مع أنه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ أي: يصبك ﴿ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ مرض أو فقر أو أي شدة ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ عنك إذا دعوت ﴿إِلَّا هُوَ ۚ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾ ويخصك ﴿بِخَيْرٍ﴾ من عافية أو غنى أو غير ذلك ﴿فَلَا رَآدَّ﴾ فلا مانع ﴿لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ أن ينالك أو تناله.

حيث إنه عز وجل ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بهذا الخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

هذه هي نهاية الخطاب الإلٰهي العام الأول في خاتمة السورة..

وفي **الخطاب الثاني**: تأكيد للاهتداء بالقرآن، يقول الله تعالىٰ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

ومعنىٰ الآية: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الدنيا كلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في كل زمان ومكان ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القرآن ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مع رسول الله ﷺ هاديًا للتي هي أقوم في كل شيء ، ولذلك اهتدوا بهديه، وانتفعوا بما فيه.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بهديه واختار الحق، واتبعه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: ثواب اهتدائه يعود عليه، وينتفع هو به.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن هدايته واختار الضلال، واتبعه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: جزاء ضلاله يعود عليه ويكتوي بأضراره.

وعلىٰ كل حال سواء اهتديتم أو ضللتم فـ ﴿مَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ يجبركم علىٰ الهدىٰ، أو يلزمكم بالإيمان، إنما أنا نذير وبشير فقط، والهداية من الله.

وما دام الأمر كذلك أيها المؤمن، فالتزم أمر الله تعالىٰ، حيث يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام:

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

أي: ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ يا محمد ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من ربك وهو القرآن، وكذلك ﴿ٱتَّبِعْ﴾ أيها المؤمن ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ إلىٰ نبيك ويصل ﴿إِلَيْكَ﴾ من ربك.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ علىٰ مشاق التبليغ لدين الله والعمل به، والإيذاء في سبيله.

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بينك وبين مخالفيك بالنصر لدين الله، وعلو كلمته ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بعدله وحكمته ورحمته. وقد اتبع محمد ﷺ وصبر ووفىٰ بما عاهد الله عليه..

فهلَّا سار المسلمون علىٰ نفس الدرب؛ لعلهم ينصرون!!

* * *